

كتاب السيرة الذاتية (السيرة الطائرة) لإبراهيم نصر الله

دراسة تحليلية

AL-SĪRAH AL-TĀ'RAH OF IBRĀHĪM NAŞRULLĀH  
(AN ANALYTICAL STUDY)

د. أورك زيب الأعظمي<sup>1</sup>

**Abstract**

*There are several autobiographies written in Arabic by the Arabs and by the non-Arabs. Among such famous autobiographies are 'al-Ayyam' by Taha Hussain, 'Hayati' by Ahmad Amin and 'Ana' by Mahmud al-Aqqad, 'al-Sirah al-Tairah' is one of these celebrated autobiographies. It was written by Ibrahim Nasrullah who was born in 1954. To his credit are 12 poetic collections and 22 novels. The autobiography in hand was published in 2012 from al-Dar al-Arabiyyah li al-Ulum Nashirun. This is a short article to shed light on its historical and literary importance.*

**KEYWORDS:** Arabic Autobiographies, Al-Sirah Al-Tairah, Ibrahim Nasrullah, Renowned Poet, 12 Poetry Collections

الكلمات المفتاحية: السيرة الذاتية، مشهورة، "السيرة الطائرة"، إبراهيم نصرالله، شاعر معروف، 12 مجموعة شعرية

**ملخص البحث:**

عرف الخبراء أدب السيرة الذاتية بأقوال مختلفة ملخصها: "سرد الأفراد لقصص حياتهم الخاصة وسرد يومياتهم واعترافهم الشخصية". وتكشف السير الذاتية جوانب قد لا يعرفها الآخرون ومن يهتمون بدراسة الشخصيات الأدبية المهمة. وقد وجدت السير الذاتية منذ القدم في الآداب العالمية بصورة أو أخرى. ونجد لدى العرب هذا المفهوم منذ العصر

---

1 مدير تحرير "مجلة الهند" وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيو دلهي

الجاهلي يتمثل في قصائد المعلقات وكذلك في الحكايات والقصص.

ولكن المفهوم الجديد لأدب السيرة الذاتية ظهر حديثاً مثل "الأيام" لطف حسين و"حياتي" لأحمد أمين و"أنا" للعقاد. ومن ضمن هذه السير الذاتية نجد كتاب "السيرة الطائرة" لإبراهيم نصرالله. ولد إبراهيم نصرالله عام 1954م في قرية البريج في فلسطين، درس في مدارس وكالة الغوث في مخيم الوحدات وحصل على دبلوم تربية وعلم النفس من مركز تدريب عمّان، الأردن. وقد نشر له 15 ديواناً شعرياً و22 رواية نقلت بعضها إلى اللغة الإنجليزية.

ويعتبر كتابه "السيرة الطائرة" الذي نشرته الدار العربية للعلوم ناشرون في 2012م من كتب السير الذاتية التي حاول فيها الكاتب تسجيل أحداث وأفكار ومشاعر وانطباعات تكوّنت لديه عبر سنوات خلال أسفاره المتعددة، ونجد في الكتاب متعة فنية بينة لا تفارق ما كتب خلال هذه الأسفار المختلفة، وسرد الكاتب الأحداث بذكر إشارات تاريخية وسياسية بأسلوب شعري كأنها قصائد صغيرة.

سنتناول من خلال دراستنا لهذه السيرة الأحداث التي مرّ بها الكاتب وأسلوبه الشيق المختلف عن السير الذاتية الأخرى.

#### السيرة الطائرة لإبراهيم نصرالله

تعتبر السيرة الطائرة حكاية الرحلة للكاتب إبراهيم نصرالله. وهي في الوقت نفسه سيرة الكاتب الإبداعية والإنسانية والأثر الذي تركه السفر في كتاباته الشعرية والروائية. وتُظهر بصورة واضحة وجلية موقفه من القضية الفلسطينية، وما ناقشه من القضايا مع الباحثين والمثقفين من جميع أنحاء العالم، حيث التقى بهم في هذه الرحلات على مدى عشرين عاماً. وقد انعكست شخصيته كشاعر وروائي وكاتب غير تقليدي بصورة واضحة جداً في هذه السيرة.

قسم الكاتب سيرته إلى رحلات مختلفة، وكل رحلة لها عنوان يميزها عن الرحلات الأخرى

حسب ما شاهده أو واجهه في تلك الرحلة المعينة، ولكنه في بعض الأحيان يتذكر سفرًا سابقًا بسبب موقف يتعرض له، فيذكر تفاصيل ذلك السفر تحت باب: "والشيء بالشيء يُذكر". ويذكر إبراهيم نصر الله سبب كتابته لهذه السيرة وهو طلب صديقه الروائي فاروق وادي، فقد قال له بعد سهرة طويلة تحدث فيها إبراهيم عن أمسيات شعرية ولقاءات مع كثير من البشر: "لماذا لا تكتب ذلك كله؟". وبدا بالكتابة بعد عدة سنوات عندما جاءت الرحلة الاستثنائية إلى كولومبيا". (ص10)

سبب إعجابي بهذا العمل الأدبي: قرأتُ السيرة الذاتية لإبراهيم نصر الله بعنوان "السيرة الطائرة" وأعجبتُ بطريقة سرده للأحداث التي مرّت به أثناء سفراته المختلفة وقد ضمّها كتابه هذا بأسلوب يختلف عن أسلوب الأدباء الآخرين الذين ألفوا في مجال السيرة الأدبية حيث ينتقل الكاتب بنا إلى بلدان ومدن مختلفة يذكر أهم معالمها وأمورًا بسيطة لاحظها لا يلتفت إليها السائح العادي وكونه كاتبًا وأديبًا منحه حسًا مرهفًا ينتبه إلى هذه الدقائق التي تمرّ على النفس الإنسانية فالقراءة في هذا الكتاب قراءة ممتعة ترقّ عن النفس وتجعلك كأنك ترافق الكاتب في رحلاته البحرية والجوية والبرية.

سبب التسمية: يذكر الكاتب سبب تسمية سيرته بـ"السيرة الطائرة": "وقد كنت دائمًا مبهورًا بما تركه السفر من أثر في تجربتي الكتابية، وأكاد أقول إنه كتب معي ربع أعمالي الأدبية، من (براري الحمى) إلى (الأمواج البرية) إلى (مجرد 2 فقط) إلى (فضيحة الثعلب) إلى (مرايا الخريف) الذي لم يصدر بعد، إلى عشرات القصائد المتفرقة وصولًا إلى هذا الكتاب نفسه!!

ولذا، فإن هذا الكتاب بقدر ما هو عن أسفار كثيرة، فإنه عن (السفر) وعن بشر كثيرين، إلا أنه عن (الإنسان)، وعن كتب كثيرة، إلا أنه عن (الكتابة). إنه في النهاية جزء من سيرتي.. السيرة الطائرة". (ص11)

نذكر فيما يلي تفاصيل السيرة من خلال هذه الأسفار:

السفر الأول: الأشجار التي تتركها وراءك لن تتبعك

هذه رحلة الكاتب إلى مدريد، حيث قضى فيها ثلاثة أيام مع صديقه الكاتب العراقي عبد الهادي سعدون. وحسب الكاتب فإن هذه الأيام الثلاثة لم تكن كافية لرؤية المدينة ولكنها كانت كافية لتحسس قلبها، حيث كان الجو دافئاً صبحاً، واندفعت بجمرة طقسها الحزيراني منذ الحادية عشرة حتى السابعة مساءً. ومن خلال ذلك يذكر أسماء بعض الأدباء والمثقفين الأسبانيين مثل لوركا وكارلوس ساورا ورفائيل ألبرتي وبونويل وبيكاسو.. هؤلاء الذين عمروا قلب البشرية بأكثر من شمس.

التقى كذلك ببعض أصدقائه الذين كانوا مقيمين في مدريد منذ زمن طويل مثل: الروائي محسن الرملي والدكتور محمد الجعيدي. وناقش معهما وضع الثقافة العربية على أرض أسبانيا.

أما مدينة مدريد فتصبح فيها الشوارع شبه مهجورة مع تصاعد درجات الحرارة، لكن ذلك لم يمنع الكاتب من أن يمضي الكثير من الوقت متجولاً فيها، ودائماً كان هناك بشر، ربما قادمون من مدن بعيدة لا يستطيعون الامتثال لكتاب الوصايا الطيبة. وفي اعتقاد الكاتب:

مذاق المدن

كمذاق الحب

دائماً يتفتح هناك في الوحدة

أما العنوان فيرتبط بكثرة الأشجار المختلفة في مدريد، يكتب: "في كل شارع هناك أشجار مختلفة، للوهلة الأولى تظن أنك ستلقاها في شارع آخر ولكن عبثاً"، "وقلت: سأراها هناك، لا بد ثانية، في مكان آخر، وبعد أيام اكتشفت أنّ الشجر كالبشر، حين تضيع الفرصة للقائك بهم.. حين تترك أحدهم خلفك، قد لا تعثر عليه ثانية أمامك". (ص16)

السفر الثاني: قاعة الصمت

هذه الرحلة هي إلى مدينة برلين، مدينة برلين التي تسكن الذاكرة بقوة كما لا تسكنها أي مدينة أخرى.

سبب زيارته لبرلين كان تقديم دراستين عن الروائي عبد الرحمن منيف والروائي غالب هلسا. ومع أنه لم يكن ناقدًا أدبيًا في أيّ يوم على حسب قوله، إلا أنه اعتبر تلبية طلب الجهة المنظمة واجبًا أخلاقيًا وتحية لكاتبين كبيرين راحلين أحبَّهما.

تجول الكاتب في برلين في متحف بيرجامون، تجول في الصين القديمة، الهند، العراق، ووجد نفسه أمام واجهة قصر المشتى في قسم الفنون الإسلامية. يبلغ طول الواجهة 33 مترًا بارتفاع خمسة أمتار، وقد كانت هدية السلطان عبد الحميد الثاني للقيصر الألماني فيلهلم الثاني خلال بناء سكة حديد برلين بغداد.

وذكر الكاتب أسماء بعض أصدقائه ومعارفه في برلين مثل: هايدي غتسمان منسقة اللقاء، والدكتورة أنجليكا نويغيرت في جامعة برلين الحرة، والدكتور غونتر أورت، وميخائيل ماركس، ليلي الشماع، والفلسطينية الألمانية سميرة هنيبي التي كانت تعد رسالة ماجستير عن رواية الكاتب (طيور الحذر) في جامعة أنلكو بباريس.

بين إبراهيم نصر الله سبب إنشاء قاعة الصمت والتي عُنُوَ بها رحلته. يقول: "إن الفكرة لوجود قاعة الصمت لجميع الناس، بدأت بعد الانفتاح مباشرة في برلين، ويرجع إنشاء هذه القاعة حسب رأي (جماعة التصعيد) التي أنشأتها إلى سببين:

أولهما هو حق جميع الناس مهما كانوا، ودون تمييز لشكلهم أو لونهم أو اتجاههم أو دينهم أو حالتهم البدنية أن يأتوا لهذا المكان لكي يتعدوا عن ضجيج المدينة للاسترخاء وإعادة نشاطهم من متاعب الحياة اليومية، ولكي يستمتعوا بهذا المكان التاريخي رغم زمنه الأسود.

والسبب الثاني: هو طلب التسامح ما بين الناس والأخوة ما بين الأوطان، وليكن هذا إنذارًا للأعداء الأجانب والغرباء وخطوةً جديدةً للسلام والاتحاد ما بين الشعوب".

(ص 27)

السفر الثالث: حانة الغراب

هذه هي بداية رحلته إلى كولومبيا حيث وصل المطار ولكن تم إلغاء حجزه بسبب عدد

الركاب الزائد، فشركة الطيران الأسبانية تقوم ببيع 15% تذاكر إضافية مقارنة بعدد الركاب الفعليين حتى يضمنوا عدم وجود أيّ مقعد فارغ في الطائرة، وفي ذلك اليوم وصل جميع من أكدوا حجزهم!

وهكذا عاد الكاتب إلى مدريد ليوم آخر بعد أن استلم بطاقة الصعود للطائرة في اليوم التالي وتعويضاً مالياً جيداً.

وعند جلوسه في غابة غير مكتظة بالبشر، شاهد غراباً أسودً يحشر منقاره في علبة بييرة ملقاة أسفل سلة المهملات، وحين لم يستطع دفعها برفق شديد حتى سقطت على جانبها. وراح يشرب ما تبقى فيها من قطرات. راقبه الكاتب حتى آخر لحظة وتساءل: أيّ علبة مشروبات تالية سيختار؟ وقف الغراب فوق أطلال العلب الفارغة وتحولت الغابة في نظر الكاتب إلى حانة الغراب.

ركب إبراهيم الطائرة إلى بوغوتا عاصمة كولومبيا في اليوم التالي، وفجأة لاحظ الكاتب النيجيري الكبير وولي سوينكا الذي حصل على جائزة نوبل للآداب عام 1986م. وقد عرفه من بعيد بشعره الأبيض البارز. وقد تأثر الكاتب بتواضع سوينكا ورضاه بخلاف كثير من الشعراء والأدباء العرب الذين يعددون مطالبهم الكفيلة براحتهم، بدءاً من الفندق، الذي قد يكون أحياناً غير ذلك الذي ينزل فيه (بقية) ضيوف المهرجان، إلى مقعد الدرجة الأولى على الطائرة، إلى السيارة الخاصة التي يجب أن تكون تحت تصرفهم، إلى المبلغ النقدي يشترط بعضهم الحصول عليه مقابل مشاركتهم، وقد يدخلون في مفاوضات ماراثونية من أجل ذلك.

وضمن سرده لهذه الرحلة يذكر مقتطفات من رحلات أخرى مثل رحلته من نابولي إلى روما والتي قابل فيها فتاة جلست بجانبه وكانت تقرأ كتابه (مجرد 2 فقط)، ولم تعرف أنّ مؤلف الكتاب يجلس بجانبها.

السفر الرابع: دمعة طائرة

يبدأ الكاتب سرد أحداث هذه الرحلة بالعبارات التالية:

الطريق الذي لا يؤدي إليك:

لن يصل

النهر الذي لا يصب فيك:

ناشف

والدمعة التي لا تذرف عليك:

بلا عينين

تبدأ الرحلة في السابع عشر من أيلول 1991م، حيث كان إبراهيم نصر الله مسافرًا إلى ليبيا، وفي المطار لم يجد مقعدًا فارغًا بعد تجاوز إجراءات الأمن والحقائب، ففي كل مكان نظر إليه وجد نساء متشحات بالسواد وأطفال يجلل ملامحهم الرعب. وأدرك بعد قليل أنهم فلسطينيون مقتلعون من الكويت، وكان مجرد الحديث مع أيّ امرأة منهن كافيًا لتفجر منابع الدمع.

وأخبرته امرأة أنه منذ أسبوع ينتظرون في المطار، ينامون على الرخام ويصحون على الرخام، وليس هناك مكان واحد في العالم العربي يريد استقبالهم. ولا أحد يجروّ على ذلك، هؤلاء الزعماء، ما دامت أمريكا هي التي طردتهم. وردت عليها امرأة أخرى: وحدي الله.

ويتحدث الكاتب من خلال هذا التقديم عن موقفه من القضية الفلسطينية، فيذكر أنّ اقتلاع الفلسطينيين من الكويت لم تكن الهجرة الفلسطينية الأولى، ولن تكون الأخيرة. وفي رأيه فإن هؤلاء الفلسطينيين سيطردون مرة أخرى من ليبيا كذلك. فلا أحد يريد للفلسطيني أن يعود، ولا أحد يريد للفلسطيني أن يبقى.

ومن ضمن ذلك قصيدته بعنوان (هم) التي منها قوله:

وأقتل في حالة من عناق

وأقتل في حالة من عراك!!

خذ هواك.

ألا أيها المبتلى بدماك

لا تكن ههنا.. ولا تكن ههناك

وكن أي شيء سوانا

وكن أي شيء سواك!!!!

وحلقت الطائرة أشبه بدمعة كبيرة معلقة على وجه السماء. (ص 58-59)

السفر الخامس: عماء مدبر

يتحدث الكاتب هنا عن أول سفر له بالطائرة والذي كان بعد انتهائه من إكمال التعليم في معهد المعلمين التابع لوكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين، وهذه الرحلة لم تكن باتجاه اليونان أو باريس أو روما أو مكسيكو أو مانهاتن، كانت الرحلة باتجاه الصحراء (الصحراء الغربية). لم يتخيل إبراهيم نصر الله أن يصل إلى سلم الطائرة في يوم من الأيام، فالحياة التي عاشها في المخيمات لم تكن تشير إلى أي شيء يمتلك أجنحة باستثناء الطيور الفقيرة التي تعيش في الضواحي، وهي الطيور التي لا يكفي غناؤها لبعث الفرح في تلك الحياة الجرداء للبشر.

ولكنه اكتشف فيما بعد أنّ هذه الرحلة إلى الصحراء كانت أهم مما يظن، لأنها فتحت له سماء كاملة، وسخرت له طائرات، ومطارات، وبلادًا، ومدنًا، وبشرًا لا حصر لهم، وتركت أثرها العميق في جميع مراحل حياته التالية.

كان الهدف الوحيد من هذا السفر هو العمل من أجل لقمة الخبز أولاً وثانيًا وعاشراً ربما حسب ما يذكر. وكان مرهوناً بشروط قاسية وظروف أقسى وعائدات لا تتجاوز 120 ديناراً في الشهر.



كانت القرية التي نزل فيها هؤلاء المدرسون بلا كهرباء أو تمديدات مياه ولا شوارع معبدة، وكانت الشمس منتصبه مقابل الصقيع الذي كان يمزق أجسادهم في ليالي الشتاء في المخيمات. وفي تلك الوحدة المرء هو الأم والوالد والأخوة. ولكن هذه العزلة والوحدة هي التي منحت الكاتب البداية التي لا بد منها. وكان أفضل شيء حدث للكاتب أنه لم يملأ حقيبته بالأطعمة الجففة التي أعدّها أمه للسفر، مثل الملوخية والفريكة والمرمية والزعر، ولكنه أوجد في حقيبته الضخمة مكاناً لعشرات الكتب. ومن هناك اتخذ قراره الكبير: بأنه سيكون كاتباً. واستطاع كذلك أن يصل إلى مكتبة في القرية المجاورة بمساعدة عبد الله مدير المدرسة السعودي. وهكذا استطاع الحصول على كتب الشعر والتراث والدين والحكايات والتاريخ، وكانت أحدث المؤلفات الموجودة في تلك المكتبة كانت أعمال سيد قطب وأحمد أمين.

وتأثر الكاتب كثيراً بكتاب (روائع طاغور في الشعر والمسرح) الذي ترجمه الدكتور بديع حقي للعربية، وقد حمّله الكاتب معه من عمان. يقول: "لقد حدث الكثير في تلك الأيام، بعضه أدركته وبعضه لم أدركه، ومن ذلك الذي لم أدركه أنّ حضور طاغور الفاتن المتحد بالطبيعة وبجلال الهند وروعته وخضرتها راح يتسلل إلى روحي وعيني، فلم يمض زمن طويل قبل أن يأخذ إحساسي بتلك القرية (نُقْمَة) يتحول إلى شيء معاكس تماماً.... فإذا بحقول الذرة الفقيرة تتحول إلى سهوب السافانا، وإذا بالأشجار الشوكية خلف البيت تتحول إلى غابة، ولم يكن صعباً بالطبع أن أتعامل مع الشروق والغروب ونجوم الليل بالطريقة نفسها التي أحسّ بها طاغور لأنها النجوم نفسها والغروب نفسه والشروق نفسه رغم كل ما في المشهد من اختلاف. ولكن المفارقة الأكبر أنني بعد ثلاثين سنة اكتشفت أيضاً أنّ طاغور والشعر الياباني والصيني من أقرب أشعار العالم إلى قلبي". (ص 75)

وفي نفس هذه المرحلة كتب إبراهيم نصر الله القصيدة (أحلام قرية حية)، وكانت أول قصيدة كتبها حتى ذلك التاريخ وتكونت من 120 بيتاً، أرسل القصيدة إلى جريدة (البلاد) السعودية، وبعد أقل من شهر أخبره مدير المدرسة ضاحكاً وهو يحمل جريدة

البلاد في يده: "يا حظك! هناك شاعر اسمه إبراهيم نصر الله. تصور! وقد أحضرت لك قصيدته لترى". وبدأ قلب إبراهيم بالخفقان، ماذا لو كان هناك شاعر بهذا الاسم نفسه، وماذا سيفعل إذا ضاع اسمه؟ ولكنها كانت قصيدته منشورة في قلب الصفحة الكبيرة، الصفحة التي كان عنوانها (الفكر الإنساني)، وإلى يسارها موضوع عن (دائرة المعارف الفرنسية الكبرى)، وإلى يمينها موضوع عن (الوثائق السياسية الإدارية للعصر الأموي). وقد أخبر الكاتب مدير المدرسة بأن هذا الاسم اسمه، فقال له: أعرف. إنه سميك. بل هو أنا!! وهذه القصيدة قصيدتي.

وينظر إليه المدير كما لو أنه خان صداقته. ومرّ زمن طويل قبل أن يعترف بأن صديقه شاعر.

يقول إبراهيم نصر الله: "وهكذا أكون قد وُلِدْتُ كاتبًا في سفر. لقد تفتحت روحي في حديقة طاغور، طاغور الذي بدا لي أقرب ما يكون لقديس أو نبي منه إلى شاعر. أقرأ أشعاره وسيرته وتفتني رفته مع الطبيعة، وأتخيله يسير وكل الكائنات تلتجئ تحت عباته: العصافير والصقور، الغزلان والنمور، الفراشات والصبايا الجميلات والغيوم أيضًا. أما جائزة نوبل التي لم يكن اسمها يلفت انتباهي، فقد كان لها معي وحيد: طاغور فاز بها". (ص 77)

ومن العناوين الأخرى التي يُتَحَفَّنُ بها إبراهيم نصر الله لأسفاره، منها: (حديث طائر مع سوينكا)، (ليلة الطائف)، (زيارة الذاكرة)، (فنادق وأسرة)، (برا وبحرا وجوا)، (عساكر وقصائد)، (صباح جميل)، (العربي الوحيد).

إن إحساس الكاتب الذي يحمله بين طياته لكل الأماكن التي زارها في حياته يجعله يكتشف كل يوم شيئًا جديدًا، يكتشف قيمًا عالية ضد التعصب لأيّ مكان، لأنه ينتمي لعالمين، المكان الذي ولد فيه، والمكان الذي يموت فيه.

أستعيد الأماكن كلها

أمد ذراعي على وسعهما  
أطوق بهما هذا الكوكب الصغير  
وأحتضنه بجمارة..  
ولكن..  
ثمّة هناك،  
أكثر من جرح في القلب!!

وخلاصة القول: إنّ كتاب "السيرة الطائرة" كتاب أنصح بقراءته خاصة للأفراد الذين يرغبون في قراءة السيرة الذاتية الممتعة والمختلفة في نفس الوقت. ومن الضروري أن نطلع على كتب كهذا وخاصة للأدباء المعاصرين والذين تجوّلوا في أرجاء المعمورة وسجّلوا ما مرّوا به من الأحوال والأحداث ونشروها لكنها قد تكون غير معروفة لدى الجميع.



This work is licensed under a [Creative Commons Attribution-NonCommercial-ShareAlike 4.0 International \(CC BY-NC-SA 4.0\)](https://creativecommons.org/licenses/by-nc-sa/4.0/)